لطائف المعارف [هارون وبنوه]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد ورسوله ،، أيها المباركون هذا لقاء متجدد من برنامجكم [لطائف المعارف] وعنوان حلقة هذا اليوم (هارون وبنوه) فمن هارون؟ ومن بنوه؟

لا حاجة لأن نقول إنه قد وقع في قلبك أيها المشاهد الكريم أنه (هارون الرشيد) لأنه علم لا ينصرف اسم (هارون) إلى غيره على الأقل في زماننا الله جل وعلا يقول:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ** تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} دولة بني العباس قامت على أنقاض دولة بني أمية ، ممن منّ الله عليهم بالخلافة وآتاهم من ملكه (هارون الرشيد) ، و(هارون الرشيد) ابن لـ(المهدي) احد خلفاء بني العباس وأخ للهادي الخليفة الذي قبله ، له أبناء عديدون وهو قد عُرف عنه شجاعته وبسالته وهو صاحب الكلمة المشهورة أو الكلمة الشهيرة ((من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم)) وهذه التي يتمسك بها كثير من أهل الحماس في زماننا لو كان هناك تريث وتعقّل في حفظها ونقلها لكان أولى ، الذي يعنينا (هارون) هذا أحب أن يترك الخلافة من بعده موثقة لأبنائه وأنا أريد أن أبين لك هنا في المقام الأول أن تعلم أنه لن يقع إلا ما أراده الله أنت تريد وهذا يريد والله يفعل ما يريد ، حرص (هارون) على أن يقسم الدولة الإسلامية على رقعتها الكبيرة آن ذاك بين أبنائه الثلاثة (الأمين) ، و(المأمون) ، وأحد أبنائه واسمه (القاسم) أو قريباً من هذا الاسم ، الذي يعنينا حرص (هارون) على أن ينال كل من أبنائه حظاً هؤلاء الثلاثة الكبار من أبنائه وله أبناء آخرون ، الآن لاحظ معي كان له ابن يقال له (المعتصم) وهو ثامن أبناء (هارون الرشيد) لكن (هارون) غلب على ظنه أن هذا(المعتصم) لن يصل إليه أمر الخلافة لن

تصل إليه عقدة الملك يعني لن تُعقد له ولاية لبعده ، عقد لـ(الأمين) رغم أنه أصغر من (المأمون) ، لكن (المأمون) كان ابن جارية يقال لها (مراجل) ماتت في نفاسها أي أنها ماتت وهي تضع ابنها (المأمون) واسمه (عبد الله) أما الأمين فأمه هاشمية (زبيدة) تسمعون بـ(عين زبيدة) كانت قد بقيت حية فهي تؤثر في قرارات زوجها فقدم (هارون) (الأمين) على (المأمون) لكنه أخذ البيعة لـ(الأمين) و(المأمون) والابن الثالث وكتبها وعلقها على الكعبة بعد أن أشهد الناس عليها ، كل هذا ظناً منه أنه سيصل الأمر إلى هؤلاء الثلاثة وهذا ما أراده (هارون) لكن ما أراده الله شيء آخر ، ورث (الأمين) الخلافة عن أبيه وأصبح أمير المؤمنين ، لكنه لم يكن رجلاً مهيأً للملك أصلا فكان مشغولاً بالصيد من حوله لا يعنون بأمر الخلافة والإنسان عندما يتحمل أمراً عظيما إما أن يقوم به أو أن يتركه ، حتى قيل إنه كان مع غلامه في الأيام التي كان أخوه (المأمون) يحاصر بغداد ، فتصور أن أخاه ينازعه في الملك ويحاصر بغداد أين كان (الأمين) حينها؟ كان على شط النهر يصيد ، وما أصابه من غم لم يكن بسبب أن أخاه يحاصره لكن كان لأن الغلام صاد أكثر من سمكة وهو لم يصد شيئاً ، ومثل هذه الأنفس نحن لا نتكلم في أمر آخرتها وأين مآلها هذا شيء لا نعلمه لكن نتكلم في أنها لا تصلح أن تكون حاكمة لا يصلح أن تكون ذات ولاية ، والمقصود أن الإنسان إذا رغب أن يكمل دراسته العليا مثلاً يأخذ هذا الأمر بالجد أو يتركه ، إذا رغب أن يكون تاجراً عظيماً فإن لهذا طرائق وأسباب إما أن يستمسك بها مع التوكل على الله أو أن يتركها ، وكذلك في كل مجال فإن المجد لا يُبنى بالكسل

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

الذي يعنينا أن (الأمين) نازعه أخوه (المأمون) في الخلافة لفجوة حدثت بينهما ، وصل الأمر إلى (المأمون) (المأمون) كان ذكياً فطناً محب للثقافة لكنه أسرف على نفسه في أنه تبنى رأي المعتزلة في القول بخلق القرآن ، المهم أن (المأمون) كان على يده قتل (الأمين) على يد قائد خزاعي عنده فورث (المأمون) الخلافة وأسلم الناس له الأمر وعُقدت له البيعة ، قلنا أن (المأمون) كان شغوفاً بالثقافة ولذلك أذن وهيأ للناس

وللعلماء خاصة قضايا العلم والترجمة في زمنه عن اليونانيين انتشرت وذاعت وعلا شأنها واستفادت بعض العلوم العربية كثيراً من الترجمة عن اليونانية خاصة في ما لا يتعلق بأمور الشرائع وكان هناك بعض السلبيات لا ريب لكن النفع كان أكبر ، الذي يعنينا أن (المأمون) وهو (عبد الله) كان حكيماً ومما يُروى عنه أنه كان يقول بعد أن ذات يوم أراد الخادم فقال: يا فلان –ينادي خادمه- يا غلام ،، يا غلام،، يا غلام فقام الخادم ضجراً ويقول: يا غلام يا غلام أليس للغلام وقت راحة؟!! أليس للغلام ساعة ينام فيها.. يعاتب أمير المؤمنين الأمة كلها تحته وهو غلام له فماذا قال المأمون؟ قال كلمة بليغة لا يُوفق لها كل أحد قال:((إذا حسنت أخلاق الرجل ساءت أخلاق أهله ،، وإذا ساءت أخلاق الرجل حسنت أخلاق أهله)). الآن دعنا من المثاليات والنظريات وكتب التاريخ والأدب وحبك الصنعة الأدبية فلنعش واقعنا: إن الأب في البيت إذا كان فظاً غليظاً سيء الخلق تجد أن زوجته وأبنائه وبناته ومن حوله يخشونه فتحسن أخلاقهم خوفاً من غضبه من عنفه من ردة فعله ، وإذا كان الأب سمحاً يتغافل عما يرى لا يحاسب من حوله عن كل صغيرة وكبيرة فهذا تسوء أخلاق أهله ليست تسوء أخلاق أهله بأنهم يرتكبون المحارم -معاذ الله- لكن يصبحون غير بالين في أمور معينة لأنهم يأمنون ردة فعل القيم على البيت هذا الذي أراد (المأمون) أن يقوله وهو قول بليغ يمثل رؤية رجل واقعي يعرف الناس يعرف أحوالهم يعلم خفايا كثير مما يقع حوله وقد كان (المأمون) فيما نُقل عنه رجل يحب [العفو] حتى قيل أنه كان يقول:((أخاف ألا يثيبني الله على العفو على أنني أفعله عادة لا عبادة)) أي: من كثرة حبي له أخشى ألا أُثاب عليه..

الثالث من أبناء هارون مات ، و(الأمين) أين ذهب؟ قُتل على يد الخزاعي قائد (المأمون) وبقية الأربعة الذين بين(المعتصم) الثاني والثالث ماتوا في حياة (المأمون) فآلت الخلافة إلى (المعتصم) ولم يكن يظن (هارون) وعنوان حلقتنا [هارون وبنوه] لم يكن يظن (هارون) قط أن الخلافة ستصل إلى (المعتصم) فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء!!

(المعتصم) من غرائب ما يمكن أن يقال عنه أنه يسمى [المثمَّن] أو [المثمِّن] وإن شئت جعلتها سم فاعل وإن شئت جعلتها اسم مفعول فكل يؤدي إلى المعنى الذي نريد إيصاله إليك ، (المعتصم) ثامن خلفاء بني العباس ، حكم ثمانية سنين ثمانية أشهر ثمانية أيام ، خلّف ثمانية ذكور وثمانية إناث ، ولد في برج العقرب وهو البرج الثامن في البروج المعروفة .. هذا كله جعل الناس يقولون إنه [المثمِّن] وهو قطعاً أو وهو ثابت أنه ثامن خلفاء بني العباس ، كانت بينه وبين (دعبل الخزاعي) أحد شعراء آل البيت المشاهير ليس من آل البيت لكنه كان يحبهم ويمدحهم ويتشيع لهم ، فكان بينه وبين (المعتصم) أنفة وفجوة ونفرة بتعبير أوضح ، قد تقول كيف يكون (دعبل) شاعراً لآل البيت و(المعتصم) من آل البيت؟! لكن أقصد أنه كان شاعراً للعلويين خاصة من آل البيت ،، (دعبل) يقول في حق (المعتصم):

ملوك بني العباس في الكتب سبعة *** ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة *** خيار إذا عدوا وثامنهم كلب

وهو بيت ظاهر الهجاء والسخرية من (المعتصم) الخليفة العباسي المعروف ، لكن أهل الصناعة الجهادية يحمدون ومعهم المسلمون جميعا لـ(المعتصم) ما صنعه في وقعة [عمورية] يوم أن نادته تلك المرأة ((وامعتصماه)) فأجابها وأغاثها ورفع الله به لواء الإسلام آن ذاك ، وهو ما خلده (أبو تمام) في بائيته المشهورة::

السيف أصدق إنباءً من الكتب *** في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في *** متونهن جلاء الشك والريب

وهي قصيدة قالها (أبو تمام) الشاعر العباسي المعروف يمدح فيها (المعتصم) ويخلد وقعة [عمورية] ، وقد وصل الأمر في عصرنا هذا إلى أن حاول (عمر أبو ريشة) وهو شاعر سوري معاصر له أبيات في هذا شهيرة تتكلم عن وضع المسلمين الحالي مقارنة بـ (المعتصم) وهو القائل:

رب (وامعتصماه) انطلقت *** ملء أفواه البنات اليُتّم

لامست أسماعهم لكنها *** لم تلامس نخوة (المعتصم)

وفي بعض أبيات (أبي ريشة) نوع من المجازفة أوالغلو لأن التاريخ لا يحسن تطبيق أحداثه بمجرد نداء فالأحوال تختلف والمصالح تتباين والقوة من حال إلى حال تتغير ولا يمكن أن نطالب كل أحد معاصر بما خطه الأولون لأن العبرة بالمصالح العامة ليست العبرة بالحماسة فقط والنظرة إلى ما سبق ، لكن كما قلنا في دروس مضت أن النبي من رأى خطواته في نصرة دين الله يرى أنه جلياً أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقدم مصلحة الإسلام العليا فهو عليه الصلاة والسلام يخرج إلى عير قريش يوم بدر -مائة وأربعين كيلاً عن المدينة- مسافة بعيدة ، ونراه يوم أحد قرابة ست أو سبع كيلو عن المسجد النبوي ، ونراه في الخندق بعدها يدنو قليلاً من المسجد فجبل [سلع] الذي وقعت عنده غزوة الأحزاب دون أحد بكثير ، ثم نراه يأتي إلى مؤتة إلى أطراف الشام ، ثم نراه يأتي إلى خيبر ، ثم نراه بعد ذلك عليه الصلاة والسلام يفتح مكة ..إذن القرارات كانت تختلف من حالة إلى حالة والعاقل يحكم العقل وينظر أبن المصالح ، وفي قليل أمره وكثيره يفيء إلى صحيح النقل إلى صريبح الكاتب إلى صحيح السنة إلى الأيام النضرة والسيرة العطرة من سيرة نبينا فيقتبس من سناها ويسير على منوالها..
الذي يعنينا في هذا الأمر كله أن نعلم خبر هارون وأبنائه الثلاثة ،، بقيت رواية تاريخية تقول:إن (المأمون) ذات يوم رأته (زبيدة) أم (الأمين) بعد مقتل أخيه (الأمين) الذي هو من أبناء (زبيدة) فلما رأته تمتمت بكلمات غير مفهومة فأصر عليها أن تخبره بما كانت تقول ، لكنها أبت فألح عليها إلحاحاً شديداً فقالت: كنت أقول: ((قاتل الله الملاحَّة)) فتعجب لماذا تقول هذه الكلمة وألح عليها مرة أخرى أن تخبره بالسبب ، فسبحان الله! ماذا قالت؟ قالت: إنني كنت مع أبيك - أي (هارون)- فغلبني -في لعبة بينهما- زوج وزوجته- فحكم عليّ بأمور –أي كلفها بتكليف- ، ثم إنني بعد ذلك غلبته وأصررت عليه وألححت عليه أن يطأ أمك (مراجل) فكان من وطئه لـ(مراجل) تلك الجارية أن حملت أمك بك وولدتك ، وكان على يديك قتل ابني فتأمل ماذا قال (المأمون) قال:((قاتل الله الملاحّة)) لأنه لما ألح عليها سمع منها هذا الخبر غير الحميد عن نفسه وعن أمه ، وعلى هذا العاقل لا

يصر على الوصول إلى الأشياء التي يخفيها الله عنه ، فأحياناً أمور إذا ظهرت وكشفت كان بودنا أننا لم نسمعها ..

أسمعني الله وإياكم كل خير في الدنيا والآخرة ،، هذا ما تهيأ إيراده وأعان الله على قوله حول (هارون الرشد وأبنائه) والله الموفق وصلى الله على محمد وعلى آله

والحمد لله رب العالمين،،،